الغريبان

قصة بقلم محمد كامل عارف

كانت الريح تدفعهما من الخلف بقوة ، وهما يعبران الساحة العريضة ، تحت سماء بعيدة وبيضاء . خفقت أصابعها في كفه ، فالتفت اليها ، وأشارت نحو الغرب . قالت :

ـ انها أكثر بياضا هناك .

قال : ان الشمس تدور هناك خلف الافق . ستظل تدور بمحاذاته، ثم ترتفع مرة أخرى من الشرق .

كانت الشمس ترتفع من الافق الغربي مضيئة ومرئية ، ثم يتخافت ضوؤها وتأخذ تعتم . التفت الى الخلف بوجه الريح ، فرأى صفوف النوافذ المضيئة لجامعة موسكو : مربعات زرقاء وبرتقالية ، مثبتة في سماء الليل . اختفت ثلاثة مربعات بشكل متتابع ، وانبثق مربع حليبي مورد . وسمع صوتها تقول :

ـ لنلتف حول الكنيسة ، سنرى موسكو من فوق حافة التلال .

وتركت يده راكضة بمحاذاة سياج الكنيسة . وتوقفت فجأة . وألصقت رأسها بالسياج . اقترب منها ، فأشارت باصبعها عبر السياج ، وهمست :

ـ اكتشفت مقبرة . أنظر .

تطلع داخل الكنيسة ، فرأى قبرين أبيضين ، يطلان من بين الاحراش القصيرة . وأضافت هي هامسة :

ـ لم أنتبه اليهما في الصباح .

سألها : وهل كنت صباح اليوم هنا ؟

قالت : اسمع .. اسمع .

قرب أذنه من سياج الكنيسة الحديدي البارد ، فسمع وشوشة ماء . كان الماء يهسهس بصوت ضعيف لا يكاد يسمع ، وأمالت هي رأسها نحو السياج ، رافعة حاجبيها القصيرين الى الاعلى، تنصت وتبتسم . سألها مرة أخرى :

ـ هل كنت صباح اليوم هنا ؟

انخفض حاجباها ، وتطلعت في عينيه ضاحكة ، وقالت : أجل .

ـ وحدك ؟

ـ وحدي .

وعضت شفتها العليا : أضاءت شمعتين عند مذبح الكنيسة .

والتفتت متطلعة الى القبرين الابيضين . وأضافت :

ـ لم أضعهما بنفسي عند المذبح .. أوه ! لم أستطع أن أدخل الكنيسة . كان هناك عجائز كثيرات .. كلهن عجائز . وبقيت أنا واقفة عند الباب ويبدي الشمعتان . التفتت عجوز نحوي ... كانت عجوزا جدا ، تشبه العنز الابيض . أخذت الشمعتين من يدي وأعطتهما للنساء أمامها .. أتدري ؟ لقد بقيت الشمعتان مولعتين وهما تتنقلان بين أيدي العجائز .. لم تنطفئا .

ـ لماذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ لماذا أولعت شمعتين للكنيسة ؟

ـ أوه !

وضحكت : لا أدري .

وضحكت مرة أخرى .

قال : ولكنك شيوعية .

قالت : وماذا يعني ذلك ؟

قال : كيف وماذا يعني ذلك ؟

قالت : انه لا يعني أي شيء.

ـ حسنا .. ينبغي أن يكون هناك سبب ما . أعني أنك تطلبين شيئا ما من الله .

قالت : ولكنني لم أطلب أي شيء !

والتفتت نحوه فاغرة فمها . سألها :

ـ أنت لا تريدين من الله أي شيء اذن ؟

وعادت تتطلع داخل الكنيسة ، ضاغطة جبينها نحو كفيها الممسكين بالسياج . وقالت :

ـ ولكنني لم أطلب أي شيء .. ثم انني لا أعتقد بذلك .

والتفتت نحوه . بدا وجهها شاحبا ، بنفسجيا تحت ضوء المصابيح الليلية ، وشفتاها حليبيتين ، ومبقعتين بالبنفسج . بقيت تتطلع فيه ، والريح تلف أطراف شعرها حول عنقها ، وتبعثرها فوق ذقنها وشفتيها . أزاحت شعرها ، ممسكة به وراء عنقها ، وسألته :

ـ لماذا تضحك ؟

قال : أنا لا أضحك !

ـ ولكنك كنت تضحك . كنت تنظر في وتضحك !

قال : لم أكن أضحك . كنت أنظر نحوك هكذا . وأفكر بالعجوز التي تشبه العنز الابيض .

قالت : أوه انك أحمق !

وضحكت .

ـ ان الفتاة المهذبة لا تقول لعمها أنت أحمق .

ـ أوه انك أحمق أيضا .

ـ أنا أكبرك بخمسة أعوام .

ـ يعني انك لا تستطيع أن تكون عمي .

ـ حسنا . أنا أخوك الاكبر .

ـ وأنا لا أريدك أن تكون أخي الاكبر .

ـ ما الذي تريدينني أن أكون اذن ؟

عضت شفتها العليا ، ولطمته على ذقنه ، وأخذت تركض . ركض وراءها ، متجاوزا الكنيسة ، ملتفا حولها ، ثم انحدر خلفها نحو حافة التلال . وانبثقت موسكو في الاسفل من وراء هضبة التلال وحوافه : امتدت تحتهما ، تتوهج أنوارها حتى أفق السماء البيضاء ، وتتلامع فيها نقط نور ، ونجوم وأقواس حمراء وزرقاء برتقالية وصفراء وبنفسجية ، تنبثق وتدور وتهتز وتختفي وتنبض . اقترب منها ، ولف ذراعيه حولها ، فانكأت برأسها على صدره ، وأخذا يهتزان فوق حافة التلال ، والريح لا تفتأ تدوي من الخلف ، وتحت أقدامهما تنحدر التلال بأشجارها المضيئة الى الاسفل ، ومياه قناة موسكو تتلألأ عند المنعطفات ، فيما وراء الاشجار .

قالت : لنختبىء بين الاحراش هناك .

وتقدمته نحو حافة التلال . تحدرت الى الاسفل ، مخترقة طريقا ضيقة ، متعرجة بين الاحراش . وانفتحت أمامهما فجوة ترابية مضيئة . هبطت نحو الارض ، فارتمى بجانبها . واختفت موسكو وراء الاشجار .

تطلع الى السماء البعيدة البيضاء فوقه . لم تعد الريح تدفعهما من الخلف ، الا انها كانت ما تزال تدوي في الاعالي . استند عـــلى مرفقيه ، وأخذ يعبث بالتراب ، وينصت لصوت الريح . قالت :

ـ انك تضحك أيضا ؟

أجابها : أجل .

ـ ما الذي يضحكك الان ؟

ـ لا شيء . انني أضحك هكذا .

ـ كيف تضحك هكـــذا ؟ انك تحفر الارض بأصابعك وتضحك ! ها .. ها ! أنت لا تزال !

قال : ولكنني لا أعرف لماذا أضحك ؟!

ـ كيف لا تعرف لماذا تضحك ؟

ـ لست أدري .. انني أفكر هكذا .. أنت من سانتياغو .. مـن التشيلي .. هناك في أقصى أميركا الجنوبية . وأنا من بغداد .. ها من العراق . أبوك اسمه ألبرتو دي سوزا ألفاريز . وأنا ...

قالت : وما الذي يضحك في ذلك ؟!

ـ لا . اسمعي .. أنت تدرسين الفلسفة .. وأنا أدرس الفيزيـاء الذرية . وكلانا نعيش في بلد غريب عنا . ها ؟

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ أنت شيوعية . وأنا .. أنا لا أعرف بماذا أؤمن .

قالت : وما الذي يضحك في ذلك ؟ ما الذي يضحك في ذلك ؟

قال : ولكنني لا أعرف لماذا أضحك . حقا لا اعرف لماذا أضحك .

قالت : ينبغي أن تعرف . أنت ستصبح عالما فيزياويا . وينبغـي أن تعرف كل شيء .

ـ حسنا . انني لا أعرف أي شيء مطلقـــا . ألا يضحك هـــذا ؟ انني لا أعرف ما هي الذرة . ولماذا توجد . لا أعرف ما هو هذا التراب. ولا أحد يعرف . ان كل ما نعرفه ، عن كل شيء ، يمكن أن يصبح بقفزة جديدة من المعرفة سخيفا . وهذه القفزة الجديدة ، يمكن ان تصبـــح هي أيضا سخيفة بقفزة أخرى جديدة . يعني لا أحد يعرف أي شيء .

قالت : لست أفهمك ؟

ـ اسمعي . انني أضحك ، لانني لا أعرف أي شيء . ولا أحـد يعرف أي شيء . هذا هو الذي يضحكني .

جذبته من شعره ، وقالت : أنت مجنون أيضا .

قفز على قدميه ، وتناول حجارة من الارض . أخذ يدور بالحجارة حول نفسه كرامي القرص ، وطوح بها الى الاعلى . ارتفعت الحجـارة مضيئة ، ثم انكفأت الى الاسفل واختفت بين الاشجار . وجلست هي تتطلع فيه . فأخذ يتقافز فوق الارض ، ويصرخ مثل الهنود الحمـر ، وهي ما تفتأ تتطلع فيه . ورمى بنفسه بجانبها ، على الارض ، واستلقى يتطلع الى الاعلى ، نحو السماء البيضاء . قال : ان الريح تـــدوي في الاعالي .

ولم تجبه . وأحس بها ما تزال تتطلع فيه . لف ذراعيه حـــول رأسه ، وأغلق عينيه . ومالت هي نحوه ، فتحت بأصابعها أجفـــانه المغلقة ، وتطلعت في عينيه . تعلق بها بذراعه ، وشد رأسها نحـــوه ، وقبلها في فمها . قالت له : لا تفعل . ودفعته عنها .

ألقاها على الارض ، وانكفأ فوقها ، وقبلها في عينيها ، قبلهـا في جبينها ، ثم في عينيها المغمضتين ، وتحت شفتيها ، وفي أسفـــل ذقنهـــا .

ـ لا تفعل . لا تفعل .

واحتضنها بجسده كله ، وغطس بشفتيه في شفتيها المرتعشتين ، المبللتين بالدموع .

لينينغراد — محمد كامل عارف

مؤسسة نوفل للطباعة والنشر

و

((بيت الحكمـــة))

يقـــدمـــان

الحرب العـــالميـــة الثانيـــة

للمؤرخ والصحافي الشهير

ريمون كارتييه

(في جزءين)

صدر حديثا